الطفل والطفولة في القرآن والحديث

- دراسة لغوية -

أحمد حسن الخميسي

سوريا

الأطفال زهرة الحياة، وأمل المستقبل، تتطلع إليهم العيون، وتخفق لرؤيتهم الأفئدة، ويحاطون بالعناية والرعاية منذ أن يكونوا أجنة في بطون أمهاتهم، ولا سيما في وقتنا الحاضر.

إنهم يمثلون المرحلة الأولى من عمر الإنسان. لقد أولاهم القرآن والحديث العناية، وكتبت عن ذلك دراسات معظمها انصب على الجانب التربوي، إلا أننا في دراستنا هذه، سنتناول الجانب اللغوي الذي يتعلق بالطفل والطفولة في القرآن والحديث، ونعدّ كلمة "طفل" هي المحور الأساس الذي تدور حوله الكلمات الأخرى والتي تعبر عن هذه المرحلة العمرية من حياة الإنسان، وقسمنا الدراسة إلى ثلاثة مباحث:

الأول: مفردات الطفل في القرآن والحديث.

الثاني: صفات الطفل في القرآن والحديث.

الثالث: تسمية الطفل في القرآن والحديث.

مفردات الطفل في القرآن والحديث

كلمة الطفل:

لقد منّ الله تعالى علينا أن جعل لنا بنين وحفدة، ورزقنا من الطيبات قال سبحانه ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ [النحل الآية ٧٢] ومن البنين والحفدة أطفال يعدون نعمة كبيرة، يجب أن نقابلها بالشكر والعرفان. إن كلمة طفل تعبر عن حياة الإنسان منذ الولادة حتى البلوغ، وهذا ما وجدناه واضحاً جلياً في الآيات القرآنية التي تتحدث عن أصل الإنسان وتطوره

قبل الولادة وبعدها قال تعالى ﴿ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطقة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ [الحج الآية ٥]. لقد أطلق على الوليد الذي يخرج من رحم أمه "طفلاً".

وفي قوله تعالى ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون﴾ [غافر الآية ٦٧]. وطفلاً في الآية حال من ضمير يخركم، أي حال كونكم أطفالاً وإنما أفرد طفلاً لأن المقصود به الجنس بمنزلة الجمع(١).

ولقد حدد القرآن أول الطفولة وأوسطها وآخرها، أما بدايتها فقد حددتها الآيتان السابقتان، وأما أوسطها فقد أتت على ذكره الآية/ ٣١/ من سورة النور في قوله تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ فالآية تشير إلى الصغار الذين لم يبلغوا حد الشهوة، ولم يعرفوا أمور الجماع لصغرهم، فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم(٢).

وحددت الآية التالية المرحلة الأخيرة من الطفولة ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم

(١) طاهر عاشور. التحرير والتنوير ـ الدار التونسية.

(٢) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير ـ دار القلم ـ حلب.

حكيم﴾ [النور الآية ٥٩]. وبلوغ الأطفال سن الحلم يعني أنهم بلغوا حد العقل والتمييز، والاحتلام في أمر الأولاد، وبدء أيام الحيض في أمر البنات هو الدليل على بلوغهم وبلوغهن[١].

إن كلمة الطفل جاءت بصيغة المفرد ثلاث مرات في الآية (٥) الحج والآية (٦٧) غافر والآية (٣١) النور وقد قال الشيخ محمد بدر الدين بن الملا درويش التلّوي في كتابه (بديع البيان): فإن طفل يذكر للمفرد وغيره ويذكر للمذكر وغيره.

إن كلمة طفل جاءت نكرة مرتين ومعرفة بـ"أل" مرتين إحداهما جمع تكسير (الأطفال) كما في الآيات السابقة وكلمة "طفل" النكرة ذكرت في مجال إظهار عظمة الله تعالى في خلقه أما المعرفة سواء بصيغة المفرد أو الجمع فقد جاءت في آيات الأحكام.

والطفولة تمثل مرحلة الضعف الأولى من حياة الإنسان الذي يعيش قوة بين ضعفين وذلك واضح في قوله سبحانه ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ [الروم الآية ٥٤].

هذا عن كلمة "الطفل" في القرآن أما في الحديث فهي قليلة جداً ولم تذكر إلا في بضعة أحاديث منها قول النبي ﷺ «الطفل لا يصلى عليه ولا يرث ولا يورث حتى يستهل» رواه الترمذي في الجنائز واستهلال الطفل: أن يصيح، أو يعطس، أو يبكي. وإن لم يحصل ذلك فقد ولد ميتاً. وقال ﷺ «صلوا على أطفالكم فإنهم من أفراطكم» رواه ابن ماجه في الجنائز.

ولئن لوحظ قلة كلمة الطفل بحروفها الثلاثة في القرآن والحديث، فإن ما يدل

(١) أبو الأعلى المودودي، تفسير سورة النور ـ مؤسسة الرسالة.

على مرحلتها العمرية ذكر بأسماء متعددة مثل: وليد، مولود، صبي، غلام، ولد، ابن. وهذه الكلمات نجدها متناثرة في سور القرآن وأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. وسنقف عند كل منها.

ومهما اختلف علماء اللغة في تحديد السنوات التي تدل عليها كل من هذه الكلمات، فإن الأحاديث التالية التي تحض على تعليم الأطفال الصلاة تشير إلى أنها تدل على حياة الإنسان قبل البلوغ قال رسول الله ﷺ: «علموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين، وأضربوه عليها ابن عشر» رواه الترمذي بإسناد حسن. وروى الطبراني عن عبدالله بن حبيب أن النبي ﷺ قال: «إذا عرف الغلام يمينه من شماله فمروه بالصلاة» وفي رواية أحمد: «إذا بلغ الغلام سبع سنين، أمر بالصلاة، فإذا بلغ عشراً ضرب عليها».

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» رواه أو داود، والحاكم بإسناد حسن.

وفي مسند أحمد وسنن أبي داوود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع».

كلمة الولد:

جاء في المعجم الأساسي العربي[1]: ولد: ويأتي (للذكر والأنثى والمثنى والجمع) وهو كل الذي وُلد، وقد يجمع على أولاد، ووُلْدٌ.

مولود: اسم مفعول من ولد صغير لقرب عهده من الولادة، جمعه مواليد.

(١) اصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تأليف جماعة من العلماء العرب.

وليد: هو المولود حين يولد وحتى أسبوع من ولادته وجمعه ولْدان، ووِلْدَة.

لقد ذكر الوليد في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فـينا من عمـرك سنين﴾ [الشعراء الآية ١٨]. هذا مـا قاله فرعون لسـيدنا موسى عندما دعـاه لعبادة الله وحده ومعناه ألم نرعك منذ أن كنت طفـلاً صغيراً إلى أن أصبحت رجلاً (قال مقاتل: ثلاثين سنة)[١].

وكما أن وليداً يدل على الطفل في بداية ولادته كذلك (المولود) الذي صيغ من الفعل الثلاثي (ولد) على وزن مفعـول. وقد ورد في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخـشوا يومـاً لا يجزى والد عن ولده ولا مولـود هو جاز عن والده شيئاً إن وعـد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنـكم بالله الغرور﴾ [لقمان ٣٣]، أي لا يغني ولد عن والده شيئاً والمعنى هنا للإطلاق لأن كل ابن أنثى سواء كان كبيراً أو صغيراً فهو (مولود).

وقد ورد المولود في قوله تعالى: ﴿والوالـدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضـاعة وعلى المولود له رزقـهن وكسـوتهن بالمعروف﴾ [البـقرة ٢٣٣] والمولود هنا لا تدل على الابـن الصغيـر إنما تدل على الأب وذلك عندمـا أضيف بعدها "له" فأصبح المعنى: وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف[٢].

وفي الحديث الشريف لم تتـكرر كلمة "مولود" كثيـراً من هذه الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام «ما من مـولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. . . .» رواه البخاري عن أبي هريرة، وروى البيهقي في "الشعب" من

(١) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير ـ دار القلم ـ حلب.

(٢) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير ـ دار القلم ـ حلب ج١ ص١٥٠.

حديث الحسن بن علي، عن النبي رسول الله ﷺ قال: «من ولد له مولود فأذّن في أذنه اليمني وأقام في أذنه اليسرى، رفعت عنه أو الصِّبيان» وإن كلمتي "مولود" المذكورتين في الحديثين تدلان على الطفل عند الولادة وفي أيامه الأولى.

أما (وِلْدان) فهي جمع لـ(وليد) على وزن فِعْلان نقرؤها في الآيات التالية: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ [النساء ٧٥] وقوله تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا» [النساء الآية ٩٨]. والولدان في الآيتين هم الأطفال الذين جاؤوا في جماعة المستضعفين.

ولكي يظهر الله سبحانه هول يوم القيامة ذكر أن الولدان يشيبون في ذلك اليوم ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ [المزمل الآية ١٧].

ومن نعم الله تعالى على عباده المقربين في الجنة، أن يطوف عليهم ولدان يتصفون بالنضارة والجمال دائماً قال تعالى في سورة الواقعة ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾، الواقعة الآيات (١٧-١٩) وفي سورة الإنسان ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ (١٩) والمتأمل في كلمة (ولدان) يجدها تتألف من خمسة حروف وقد تكررت في القرآن خمس مرات ثلاثاً منها معرفة ومرتين نكرة.

وإذا كانت المفردات السابقة قليلة في الآيات والأحاديث فإن كلمة ولد كثيرة وتشمل الصغار والكبار فقد نقول للصغير ولد وقد نقول للكبير ولد، وما سنستشهد به يدل على ذلك فمن الآيات الكريمة التي دلت على الولد الصغير قوله عز وجل: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار

والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ [البقرة الآية ٢٣٣] وكان بعض العرب يقتلون أولادهم صغاراً خشية الفقر أو العار خاصة البنات. فنهى الله تعالى عن ذلك في آيات متعددة وذلك في قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ [الأنعام ١٤٠]. وفي السورة نفسها يقول تعالى ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ الآية ١٥١، وفي آية ٣١ من سورة الإسراء ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾.

وفي حديث رسول الله ﷺ، ما يلمح إلى أن كلمة "ولدا" تدل على الطفل أي مرحلة ما قبل البلوغ قال عليه الصلاة والسلام «من أحب أن ينسك عن ولده فليفعل، عن الغلام شاتان مكافئتان، وعن الجارية شاة» رواه أحمد وأبو داود وفي صحيح البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» ففي الحديث دلالة على أن كلمة ولد تأتي مفرداً وتأتي جمعاً وهي هنا جمع وجمعتها الآيات السابقة على "أولاد".

وجمعت في الحديث (العمل جهاد) على "وِلْد" قال أنس رضي الله عنه: «مر بالنبي ﷺ رجل فرأى أصحاب النبي ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ إن كان خرج يسعى على وُلْده صغاراً فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى

رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان». رواه الطبراني والبيهقي.

أما كلمة الأولاد، سواء كانوا صغاراً أو كباراً، فقد تناثرت هنا وهنا في الآيات والأحاديث من هذه الآيات ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ [براءة الآية ٥٥] وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ [المنافقون الآية ٩].

وبين القرآن الكريم في أن كلمة الأولاد تشمل الذكور والإناث وذلك في قوله تعالى ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ النساء الآية/ ١١/ .

ولقد عني القرآن والحديث بالذكر والأنثى، فذكرهما صراحة بلفظ الذكر والأنثى أو بكلمة أخرى تدل عليهما مثل الصبي والغلام والوليد للدلالة على الذكر، والجارية والبنت للدلالة على الأنثى. والمولود والطفل والابن للدلالة على كليهما معاً.

كلمة الصبي:

الصبي قال عنه ابن نجيم في باب أحكام الصبيان: هو جنين مادام في بطن أمه، فإذا انفصل ذكراً فصبي إلى البلوغ[1].

ولقد ورد ذكره في القرآن الكريم مرتين، مرة في قوله تعالى في سورة مريم ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً﴾ الآية١٢، والحكم هو الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر، والمرة الثانية في قوله تعالى ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ مريم الآية ٢٩ قالوا متعجبين: كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبان أمه؟

(١) انظر: غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر للحموى (٣/ ٣٠٩) بيروت.

إن المتدبر للآيتين السابقتين يجد كلمة الصبي جاءت لتدل على الطفل يحيى وعلى الطفل عيسى ـ عليهما السلام ـ الأول أعطاه الله تعالى الحكمة والفهم صغيراً، والثاني كلم الناس في المهد وكلاهما طفل متميز عن الأطفال الآخرين، مما يجعلنا نستنتج أن كلمة صبي تدل على طفل له شأنه وله ما يميزه عن سائر أطفال جيله، بالإضافة إلى أن سياق الآية والفاصلة القرآنية يقتضيان ذلك.

وفي الحديث نجد أن كلمة الصبي تشير إلى مرحلة الطفولة بدليل قول رسول الله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ»(١) وجمع "صبي" صبيان" ففي الحديث الذي روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم أناس من الأعراب على رسول الله ﷺ: فقالوا تُقبِّلون صبيانكم؟ فقال: نعم فقالوا والله: لكنا ما نُقبِّل، فقال: «أَوَ أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة»(٢). ومثنى صبي "صبيّان" كما في حديث أم سلمة قالت بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قالت الخادم: إن فاطمة وعلياً رضي الله عنهما بالسّدة، قالت: فقال لي: قومي فتنحي عن أهل بيتي، قالت فتنحيت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران فأخذ الصبيين في حجره. . . "(٣).

ولقد كان لكلمة صبيان شيوع عند الحديث عن تعليم الصبيان وسياستهم وتربيتهم ولكن الآن تحل محلها كلمة طفل وتكاد صبي تختفي إلا في بعض الأقطار العربية. ذلك لأن الكلمات العربية كائن حي تحيا وتموت وتتجدد بسبب ظروف شتى.

(١) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما وهو حديث صحيح.

(٢) رواه البخاري في الأدب ١٠/ ٣٦٠ـ باب رحمة الولد وتقبيله.

(٣) رواه أحمد في المسند ٦/ ٢٩٦.

كلمة غلام:

قال الزمخشري: الغلام هو الصغير حتى الالتحاء، فإذا قيل بعد الالتحاء فهو مجاز[1] والغلام في القرآن والحديث يدل على الطفل قبل البلوغ، وقد تكرر فيهما أكثر من كلمة "صبي".

نقرأ الايات القرآنية التي تضمنت كلمة غلام، ثم نلاحظ ما فيها من دلالات لغوية، قال تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رب هب لي من الصالحين، فبشرناه بغلام حليم﴾ [الصافات الآية ١٠ـ ١١] ولما جاء الملائكة ضيوفا إلى سيدنا إبراهيم ﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم﴾ [الذاريات الآية ٢٨] وفي بشارة الله تعالى لسيدنا زكريا عليه السلام ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا، قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ [مريم الآية ٧ـ٨].

وبشر الله تعالى مريم بابنها عيسى عليه السلام ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً، قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ [مريم ٨-٩]. والغلام في الآيات هو الصبي والدليل على ذلك، أن الله وصف سيدنا يحيى بالصبي وهو صغير وبشر أباه فقال عنه غلام، وكلاهما قبل البلوغ والآيات الأخرى تذكر كلمة "غلام" للولد الذكر.

والملاحظ أن البشارة: التي هي الإخبار بولادة طفل ذكر، جاءت في القرآن بكلمة غلام ولم تذكر بكلمة صبي أو ولد أو غيره، وهذا ما كان معروفاً عند العرب والمسلمين، مما يدعونا لحمل البشارة بهذه الصيغة لأن القرآن حبَّذها ونتيجة الاستقراء تبين أن الغلام فيه من الخير ما فيه لفظاً ومعنى لذلك حظي بالبشرى فهو

(١) فيض القدير ٦/ ٣٥٤ ـ وانظر التفسير الكبير للرازي ٢١/ ١٥٥.

ذكر ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ [آل عمران الآية ٣٦]، وهو مولود وقدوم الإنسان للحياة فيه فرح وسرور وغبطة، بالإضافة إلى ذلك جاءت البشارة في بعض الآيات بعد عقم كالبشارة بسيدنا (إسحق) أو جاءت لولادة معجزة، كالبشارة بسيدنا عيسى، الذي ولد بدون أب، ومن أبرز هذه الأمور، كان المبشر بهم أنبياء وصفوا بالحلم والعلم والحكمة والسمو من قبل أن يولدوا.

ولم تقتصر البشارة على كلمة غلام بل بشر بالولادة بذكر اسم المولود دون ذكر كلمة غلام وذلك في قوله تعالى ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ [هود الآية ٧١] ومثله في قوله تعالى ﴿وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين﴾ [الصافات الاية ١١٢] وبشارة الله تعالى بالأنبياء لم تكن ساعة الولادة كما يفعل الناس، لكنها سبقت ذلك على لسان ملائكته لعباده بأنه سيرزقهم بغلام قبل الحمل، وهذا مالا يستطيعه إلا إله يعلم الغيب.

والبشرى بالغلام جاءت في القرآن في غير موضع الولادة فقد جاءت أيضاً في العثور على غلام ألقي في الجب، قال الله تعالى عن سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾ [يوسف الآية ١٩] وفي آية أخرى ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لأمرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولتعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف الآية ٢١] ومن الآيتين هاتين نعرف أن الغلام يقال عنه ولد والعكس صحيح.

وأما من حيث التعدد، فقد جاء الغلام مفرداً كما سبق، ومثنى في قوله تعالى ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحاً﴾ [الكهف ٨٢]. وجمع على وزن فِعْلان في قوله تعالى ﴿ويطوف عليهم

غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ [الطور ٢٤] ومن الجميل أن يأتي وزن غلمان على وزن ولدان، والاسمان جاءا تعبيراً عن الأطفال الذين يكونون كاللؤلؤ جمالاً وبهاءً، يطوفون على المؤمنين في جنة الخلد، وصُغّر فقيل "غُلَيِّم" كما في حديث الرسول ﷺ الذي رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٠٧) عن ابن عباس قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «يا غلام أو يا غُلَيِّم! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، فقلت: بلى فقال: احفظ الله يحفظك . .» الحديث.

وإذا كان الغلام يدل على الذكر فإن الجارية تدل على الأنثى:

سألت أم كرز رسول الله ﷺ عن العقيقة فقال: «عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة، لا يضركم ذكراناً كن أم إناثاً» وهو حديث صحيح رواه الترمذي برقم/ ١٥١٦/ باب ما جاء في العقيقة والأضاحي.

والجارية جاءت في الحديث مثنى، ففي "صحيح البخاري" من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا، وضم اصبعيه» رواه مسلم رقم (٢٦٣١) في البر والصلة. وهكذا نجد أن الغلام في القرآن والحديث جاء على الأغلب في معرض الحديث عن البشارة بولادة طفل ذكر، وتعددت صيغه من غلام إلى غلامين، وصُغّر على وزن "فُعَيِّل".

ورأينا ما يقابلة "الجارية" تدل على الأنثى، ولقد اعتنى القرآن وكذلك الحديث بالأنثى فذكرها بمعناها العام، وعبر عنها بالابنة والابنتين والبنات. قال تعالى ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ [التحريم ١٢].

وقال تعالى ﴿قال إني أريد أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني

حجج، فإن أتممت عشراً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ [القصص الآية ٢٧].

وقال تعالى ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ النساء الآية/ ٢٣/ .

وأشير للابنة المولودة بالأنثى في قوله تعالى ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشرَ به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ [النحل الآيات ٥٧-٥٩] وهذه البنت التي تدفن في التراب عبر عنها القرآن بالموءودة فقال سبحانه وتعالى في سورة التكوير ﴿وإذا المؤءودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾ [الآية ٨-٩] هذا في القرآن أما في الحديث فتعددت الأحاديث التي حوت كلمة البنت، ولكن معظمها لم تحدد بعمر مثل قوله عليه الصلاة والسلام «من كان له ثلاث بنات أو أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن وصبر عليهن، واتقى الله فيهن دخل الجنة» أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وتعددت الأحاديث حول تربية البنات والإنفاق عليهن.

كلمة الابن:

الابن: هو الولد المذكر وجمعه أبناء وبنون[١]. وقيل في الفرق بين الابن والولد: أن الولد يقتضي الولادة ولا يقتضيها الابن، والابن يقتضي أباً والولد يقتضي والداً، ولا يسمى الإنسان والداً إلا إذا صار له ولد، وليس هو مثل الأب لأنهم يقولون في التكنية أبو فلان، وإن لم يلد فلاناً، والحكماء والعلماء يسمون المتعلمين أبناءهم ويقال لطالبي العلم أبناء العلم[٢].

(١) انظر المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(٢) انظر: الفروق اللغوية للإمام الأديب أبي هلال العسكري ـ ص٢٣٣.

وسنرى الابن في القرآن والحديث والحالات التي جاء بها، فقد أشار القرآن إلى الصغار بكلمة أبناء في قوله تعالى ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ [القصص الآية ٤].

وفي القرآن خطاب الآباء لأبنائهم الذين لم يبلغوا الحلم أو قاربوه، منها ما قاله سيدنا إبراهيم لابنه إسماعيل عندما أمر أن يذبحه ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات ١٠٢] قال المفسرون عن (فلما بلغ معه السعي) أي ترعرع وبلغ السن الذي تمكنه من أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه وهو سن الثالثة عشرة[١].

وكذا خطاب يعقوب لابنه يوسف، وكان في سن الثانية عشرة أو قريباً منها، عندما أخبره بالرؤيا التي رآها ﴿ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ [يوسف ٥] وهناك وصايا لقمان لابنه، وهي تصلح للأبناء الصغار والكبار ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ الآية ١٣ إلى آخر الآيات من سورة لقمان، ونلاحظ (يا بني) في هذه الوصايا اللقمانية عددها ثلاث مرات وهي بعدد حروف كلمة (ابن)، وتعدد الابن بصيغ كثيرة ولكن معظمها تدل على المعنى المطلق للبنوة بغض النظر عن السن مثل: ابن، ابنين، بنون، بنين، أبناء. . .

ووردت آية فيها مثنى ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق. . .﴾ [المائدة الآية ٧] وهذه تقابل المثنى (ابنتي) وكل منهما ذكر مرة واحدة في القرآن. ووصايا الآباء

(١) محمد علي الصابوني ـ صفوة التفاسير ج٣ ص ٤٠.

للأبناء وردت بصيغة يابني وبأداة النداء يا، لأن الابن أشمل من الألفاظ الأخرى كالغلام والصبي وفيها شحنات عاطفية إنسانية لا تملكها الألفاظ الأخرى. وكلمة ابن تطلق على الولد من الصلب ولغيره، فالعلماء يسمون المتعلمين أبناءهم، لشدة التصاقهم بهم وحدبهم عليهم.

وأما في الحديث فقد حدد الابن أحياناً بسبع سنوات أو عشر كما في حديث الأمر بالصلاة السابق وفي الحديث يقال له ولد، فعن النعمان بن بشير، أن أباه أتى به النبي ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي فقال رسول الله ﷺ «أكل ولدك نحلت مثل هذا؟ فقال لا فقال: أرجعه» روي في الصحيحين.

ولئن ذكر الطفل وغيره من المفردات التي تدل على الصغار صراحة، فإن بعض الآيات يشير معناها إلى الأولاد صغاراً أو كباراً مثل قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم الآية ٦] أي احفظوا أنفسكم وصونوا أزواجكم وأولادكم من نار حامية مستعرة، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات، وبتأديبهم وتعليمهم[1]. وكلمة أهل في مواطن عديدة من القرآن تشتمل على الأولاد. ومثلها كلمة ذرية قال تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾ [الفرقان الآية ٧٤] وهذا دعاء من أجل أن يجعل الله لنا في أزواجنا وأبنائنا مسرة وفرحاً بالتسمك بطاعته والعمل بمرضاته، وأن يجعلنا قدوة يقتدي بنا المتقون، دعاة إلى الخير وتكررت (ذرية) وهي تشتمل على الأولاد صغاراً وكباراً.

وثمة لفظة فيها أطفال وفيها كبار وهي (حفدة) وقد وردت في القرآن مرة

(١) المرجع السابق.

واحدة ومفردها (حفيد) قال تعالى ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ [النحل ٧٢].

مما تقدم نجد أن القرآن الكريم أفرد لكل لفظة بخصيصة لها دلالتها المتعلقة بها دون سواها فالابن في الوصية والغلام في البشارة والصبي في المعجزة. وجمع القرآن ما بين المال والبنين، وجمع ما بين الأموال والأولاد وجمع بين البنين والحفدة، وبين صاحبته وبنيه، ووضعت الكلمات في مكانها المناسب مبنى ومعنى من لدن حكيم عليم.

صفات الطفل في القرآن والحديث

القرآن كتاب الله تعالى تأتي كلماته محكمة في المعنى والمبنى، ضمن سياقها ودلالاتها اللغوية، فقد كان لكلمة الطفل ولأسرتها من الكلمات، وقع خاص وصفات مميزة إيجابية وسلبية. من هؤلاء الأطفال من كان نبيّاً، ومنهم من كان ابن نبي، ومنهم من دل على المعنى المطلق. لقد خص الله الأنبياء في صغرهم بصفات تليق بمقامهم، فقال عن سيدنا إسماعيل بأنه غلام عليم ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ [الذاريات الآية ٢٩]. ووصفه في سورة الصافات بالحلم قال تعالى ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ [الآية ١٠١] ووصف أيضاً بأنه مطيع وصابر عندما أراد أبوه ذبحه ﴿قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات ١٠٢] وكان في آخر مرحلة الطفولة في سن الثالثة عشرة. ولقاء طاعته وصبره فداه الله بذبح عظيم.

وبالمقابل فقد وصف ابن نوح بمخالفة أوامر أبيه فهلك عند الطوفان: ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما

الموج فكان من المغرقين﴾ [هود الآية ٤٢-٤٣] ثم قال عنه ربه إنه (عمل غير صالح): ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [هود الآية ٤٥-٤٦] ونعت الله سيدنا عيسى عليه السلام بالزكي عندما بشر أمه به ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ [مريم ١٨] والزكي هو الطاهر من الذنوب، ولهذا الوصف ما يماثله في سورة الكهف ﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾ [الآية ٧٤] ونفساً زكية هي الطاهرة التي لم ترتكب جرماً.

ومنَّ الله تعالى على نبيه محمد ﷺ أن آواه وهو غلام يتيم فقال: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ [الضحى الآية ٦] وفي سورة الكهف كان الغلامان يتيمين فقال تعالى ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً﴾ [الكهف الآية ٨٢].

وذكر الأولاد بلفظ الرجال في آية المواريث من سورة النساء ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ [الآية ٧]. أي للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت كما للبنات والنساء حظ أيضاً[١]...

ولئن وصف الغلمان بالحلم والعلم والذكاء واليتم فإن الأولاء صغاراً وكباراً وصفوا بأنهم فتنة، وأنهم تفاخر وتكاثر يعتز بهم الإنسان في حياته قال تعالى

(١) المرجع السابق.

﴿واعلمـوا أنما أموالكم وأولادكـم فتنة وأن الله عنـده أجر عظيم﴾ [الأنفـال الآية ٢٨] والفتنة هنا: مـحنة من الله ليخـتبرنا كـيف نحافظ على حدوده قـال الإمام الفـخر: وإنما كـانت فتنة لأنهـا تشغل القلب بالدنـيا وتصـير حجـاباً عن خـدمة المولى[1]. وعـرفت الحيـاة الدنيـا بأنها لعب ولهـو وزينة وتفـاخر، ومن إحـدى مفردات الزينة والتـفاخر والتكاثر: الأولاد، قال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحـياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفـاخر بينكم وتكاثر في الأمـوال والأولاد كمثل غـيث أعجب الكفـار نباته ثم يهـيج فتـراه مصفـراً ثم يكون حطامـاً وفي الآخرة عـذاب شديد ومغفرة من اللـه ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متـاع الغرور﴾ [الحديد الآية ٢٠]. فالأموال والأولاد إذا فتـنت الإنسان المسلم وألهته عن واجباته، كـانت كزرع ينمو فيخضر ويزهو ثم يصفر ثم يكون حطامـاً، أما إذا جعلها المسلم وسيلة لتقرب إلى الله تعالى بقيت خالدة، وكانت سبباً لسعاده في الدنيا والآخرة، ولهذا أعقب الله تعـالى الآية السابقـة بآية تحض على المسـابقة إلى فـعل الخـير ودخـول الجنة التي عرضـها كعـرض السماء والأرض أعـدت للذين آمنوا بالله ورسله قـال تعالى في الآية الحادية والعـشرين من السـورة نفسهـا ﴿سابقـوا إلى مغفـرة من ربكم وجنة عرضها السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

وكذلك وصف الله الأبناء بأنهم زينة الحـياة الدنيا فقال سـبحانه ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيـا والباقيات الصـالحات خير عند ربك ثواباً وخـير أملاً﴾ [الكهف ٤٦] فـالأموال والأبناء إلى فناء فـلا يغتـرن بهـا الأحمق، وعليـه أن يتوجـه إلى الأعمال الصالحة التي تبقى ذخراً لفاعلها.

(١) روح المعاني ٩/ ١٩٥.

والمرء إذا كان له أبناء فإنه يحب أن يحضروا معه المشاهد والمحافل لذا قال عنهم الله تعالى ﴿وبنين شهوداً﴾ وذلك في سورة المدثر ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً، وبنين شهوداً﴾ [١٢ـ١٣] ولقد عبر القرآن عن البنت التي تدفن في الجاهلية خشية العار والفقر بالموءودة ﴿وإذا المؤءودة سئلت﴾ [التكوير الآية ٨].

ولئن غلب الوصف على الأموال والأولاد في القرآن بالزينة والفتنة والتفاخر والتكاثر وقيل عن بعضهم بأنهم (عدو) كما في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ [التغابن الآية ١٤] فإن رسول الله ﷺ أظهر الجانب الإيجابي للأولاد الذين يكونون عوناً لآبائهم في الدنيا والآخرة، وعدّهم من العمل المستمر للمسلم بقوله عليه الصلاة والسلام «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

وخلال أحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ذكرت صفات للأطفال خاصة وللأولاد بشكل عام، فقد نعتهم بثمرة الفؤاد فقال عليه الصلاة السلام «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته، قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم فيقول فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه: بيت الحمد».

ونعتهم بثمرة القلب في قوله عليه الصلاة والسلام «إن لكل شجرة ثمرة، وثمرة القلب الولد، إن الله لا يرحم من لا يرحم ولده. . .» رواه البزار عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال عنهم الرسول عليه الصلاة والسلام «دعاميص الجنة» فعن أبي حسان قال توفي ابنان لي فقلت لأبي هريرة: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً تحدثناه تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قال نعم: صغارهم دعاميص الجنة،

يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بناحية ثوبه أو يده كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتناهى حتى يدخله الله وأباه الجنة» رواه مسلم برقم / ٢٦٣٥/ في البر والصلة. وقيل في معنى الدعاميص: أن واحدها دعموص أي صغار أهلها، وأصل الدعموص: دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي أن هذا الصغير في الجنة لا يفارقها، وصنفة الثوب طرفه، وفي الحديث سمي الولد الصغير يموت قبل أبيه أو أمه بـ"الفرط" لأنه يعد أجراً يتقدمهما إلى الآخرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان له فرطان من أمتي دخل الجنة، فقال عائشة رضي الله عنها بأبي أنت وأمي فمن كان له فرط؟ فقال: "ومن كان له فرط يا موفقة، قالت فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال فأنا فرط أمتي لم يصابوا بمثلي» أخرجه أحمد برقم ٣٠٩٨ في الجنائز.

وقال البخاري في باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة، قال الحسن: يقرأ على الطفل بفاتحة الكتاب ويقول: اللهم اجعله لنا فرطاً وسلفاً وأجراً[1]. وفي نهاية مرحلة الطفولة ووصول الطفل سن البلوغ ذكر في أكثر من موضع في القرآن وفي الحديث بكلمات متعددة ففي القرآن ورد ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ فعبر عن البلوغ بالحلم.

كما أنه ورد في الأحاديث بكلمات متشابهة فقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ «خذ من كل حالم ديناراً» رواه أبو داود والترمذي. وقال عليه الصلاة والسلام: « رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ» رواه أحمد والحاكم وغيرهما. وقيل في معنى الحُلُم: حَلَمَ يحْلُمُ حُلُماً ـ الصبي: أدرك وبلغ مبلغ الرجال.

(١) صحيح البخاري ـ شرح الكرماني ـ مجلد/ ٤/ ج٧ ص١١٥.

ولقد عبر الرسول ﷺ عن البلوغ بتعبير آخر فقال: «ما من الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» روي في صحيح البخاري ٣/ ٩٥ و٩٦- الجنائز.

والحِنْثُ: الإثم والذنب وبلغ الغلام الحنث أي بلغ المعصية والطاعة بالبلوغ، وعبر الرسول الكريم عن الطفل إذا أبلغ بأنه «أدرك» فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: أيَّمتْ أمي، وقدمت المدينة فخطبها الناس فقالت: لا أتزوج إلا برجل يكفل لي هذا اليتيم، فتزوجها رجل من الأنصار قال: فكان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار في كل عام فيلحق من أدرك منهم قال: فعُرضت غلاماً وردني فقلت يا رسول الله! لقد ألحقته ورددتني ولو صارعنه لصرعته، قال "فصارعه"، فصارعته، فألحقني". رواه الحاكم في مستدركه ٢/ ٦٠ وقال صحيح الإسناد. وأدرك الصبي يدرك إدراكاً: بلغ الحلم. وفي نهاية هذه الرحلة مع كلمة طفل وأخواتها وصفاتها، فإننا نلحق بعض الكلمات التي يتصف بها من له علاقة بالولادة.

ـ فيقال للأم التي تلد الأولاد" ولود" كما في حديث النبي عليه الصلاة والسلام« تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة» رواه أحمد وأبو حاتم في صحيحه.

ـ ويقال للمرأة التي تلد "أم الأولاد" كما في قوله عليه الصلاة والسلام «انكحوا أمهات الأولاد، فإني أباهي بكم يوم القيامة» رواه الإمام أحمد في مسنده.

ـ ويقال للمرأة التي لا تلد "عاقر" جاء في القرآن الكريم ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك يفعل الله ما يشاء﴾ [آل عمران الآية ٤٠] وجاء أيضاً عن امرأة عاقر أخرى وهي امرأة سيدنا زكريا عليه السلام

﴿وإني خفت الموالي من ورائي، وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾.

وهذا ما حكاه سيدنا زكريا عن ماضيه، فلما بشرته الملائكة: ﴿قال رب أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ [مريم الآية ٨].

ـ يقال للمرأة التي لا تلد أيضاً "عقيم" قال تعالى حكاية عن زوج سيدنا إبراهيم ﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾ [الذاريات الآية ٢٩] وقد وردت كلمة "عقيم" عدة مرات في القرآن الكريم.

ـ يقال للرجل الذي لانسل له ولا عقب "أبتر" قال تعالى ﴿إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾ سورة الكوثر ويقال للأبتر أيضاً المقطوع عن الخير.

وهكذا رأينا أن الطفل ومن كان من جنسه وصف بالعلم والحلم والزكاة والتقى والشهود والولاية والرضا ووصف بأنه زينة وفتنة وعدو ووصف بالطاعة والمعصية إلى آخر ما سبق من الصفات التي أعطت للآيات بعداً عميقاً توضيحياً ودلالياً كافياً ووافياً، وكيف لا يكون ذلك والواصف هو الله الحكيم الذي ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ [الرحمن الآية ٣-٤].

تسمية الطفل في القرآن والحديث

الاسم لغة: ما وضع لشيء من الأشياء، ودل على معنى من المعاني جوهراً كان أو عرضاً، قال تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ [البقرة الآية ٣١] أي أسماء الجواهر والأعراض كلها[١].

وللأسماء أنواع كثيرة منها اسم العلم: وهو الذي يطلق على شخص أو شيء

(١) أبو البقاء يوسف بن موسى الحسيني الكفوي ـ الكليات ـ القسم الأول منشورات وزارة الثقافة سوريا ص/ ٢/ ج١.

معين مثل عـمر، والنيل[1]، وسنتناول فيـما يلي تسميـة الطفل في القرآن الكريم والحديث الشريف.

لقد خـوّل الإسلام الوالدين تسميـة الوليد ذكراً أو أنثى، وطلب منهمـا تحسين اسمه، فـقد روى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قـال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيـامة بأسمائكم، وأسماء آبائكم، فـأحسنوا أسماءكم» أخرجه ابن حبان في صحيحه.

لكن الله سبحـانه وتعالى تولى هو بذاته تسمية بعض الأنبـياء فكان هو المسمي وفي هذا تشريف لهم وتكريم فقـد سمى إسحق ويعقوب وسمى عـيسى، وسمى مـحمـداً عليـهم الصلاة والسـلام، جـاء في القرآن عن بشـارة إبراهيم بإسـحق ﴿وبشـرناه بإسحق نبـياً من الصـالحين﴾ [الصـافات الآية ١١٢] وبشـرت الملائكة إبراهيم بإسحق ويعـقوب ﴿وامرأته قائمـة فضحكت فبشـرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ [هود الآية ٧١] وجاء في بشارة زكـريا بيحيى قوله تعالى ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحرام أن الله يـبشرك بيحيى مصدقـاً من الله وسيداً وحصـوراً ونبياً مـن الصالحين﴾ [آل عمـران الآية ٣٩] وقال تعالـى ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسـمه يحيى لم نجعل له من قبل سمـيا﴾ [مريم الآية ٧] أي لم يسم أحد قبله بيحـيى فهو اسم فذ غير مـسبوق سماه به ولم يترك تسـميته لوالديه[2] وسمى الله ابن مريم فقال لها الملك ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجـيهاً في الدنيـا والآخرة ومن المقـربين﴾[آل عمران الآية ٤٥] اسـمه عيسى ولقبه المسيح.

وجاء اسم محـمد عليه الصلاة والسـلام في القرآن باسم أحمد بشـر به سيدنا

(١) المعجم الأساسي ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة ١٩٨٨ ص/ ٦٤٥/ .

(١) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير ـ دار القلم ـ حلب سورية.

عيسى عليه السلام بقوله ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ [الصف الآية ٦]، وفي الحديث «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب» أخرجه البخاري ومسلم.

وجاء في كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) للشيخ محمد الخضري ما نصه (ولما ولد أرسلته أمه لجده تبشره فأقبل مسروراً وسماه (محمداً) ولم يكن الاسم شائعاً من قبل عند العرب، ولكن أراد الله، أن يحقق ما قدره، وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل، فألهم جده أن يسميه بذلك إنفاذاً لأمره. ولقد رفع الله من شأن النبي محمد واسمه فقد قال سبحانه ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [الانشراح] أي رفعنا شأنك وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة، وجعلنا اسمك مقروناً باسمي فلا أذكر إلا ذكرت معي[1].

ولقد ذكر القرآن أسماء أطفال، أصبحوا أنبياء، كسيدنا إسماعيل عليه السلام قال تعالى ﴿فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات ١٠١ـ١٠٢] وذكر اسم الطفل يوسف عليه السلام فقال تعالى ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف الآية ٤] وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، كما ذكر القرآن موسى عليه السلام في طفولته قال تعالى ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك

(١) المرجع السابق ج٣ ص٥٧٥.

وجاعلوه من المرسلين﴾ [القصص الآية ٧] واحتفاء القرآن بالأنبياء عليهم السلام منذ الصغر دليل على عناية الله بهم وإعدادهم ليكونوا أسوة لغيرهم، لذلك رباهم وأحسن أسماءهم وحفظهم وأحبهم واصطفاهم لرسالاته قال تعالى ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى، أن أقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني، إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي﴾ [طه الآيات ٣٨-٤١]. ولئن حظي العديد من الرسل بالشرف الرفيع فسماهم الله قبل أن يولدوا، فإن بعض الصحابة، نالوا شرف تسمية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فبالإضافة إلى تسميته أولاده، وقد ذكر الحديث سابقاً، سمى غيرهم فقد أخرج مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: ولد لرجل منا غلام فسماه القاسم، فقلنا لانكنيك أبا القاسم، ولا نُنْعمُك عيناً فأتى النبي فذكر ذلك فقال: «اسم ابنك عبدالرحمن» وندبنا رسول الله ﷺ إلى التسمية باسمه، وألا نتكنى بكنيته فقال «تسموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي، فإنما أنا قاسم أقسم بينكم» أخرجه مسلم في صحيحه ودعا الإسلام إلى تحسين أسمائنا لأننا نعرف بها في الدنيا وندْعى بها يوم القيامة كما في الحديث الذي سبق، وبين رسول الله ﷺ أن أحب الأسماء ما أضيف لاسم من أسماء الله الحسنى، وعدد في أحاديث أخرى بعض الأسماء الحسنة، وحذرنا من الأسماء القبيحة كما أنه غيّر بعض الأسماء التي لم تعجبه.

أما عن أحب الأسماء، فقد قال عليه الصلاة والسلام «أحب الأسماء إلى الله تعالى "عبد الله، وعبدالرحمن"» رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، وروى الطبراني عن أبي بسرة مرفوعاً "خير أسمائكم عبدالله،

وعبدالرحمن والحارث" وراح الصحابة يطبقون هذا الحديث، حتى ذكر ابن الصلاح أن من يسمى" عبدالله" من الصحابة نحو / ٢٢٠/ نفساً وقال العراقي يجتمع من المجموع نحو/ ٣٠٠/ رجل[١]. ولقد أجاب النبي عليه الصلاة والسلام عندما سئل عن الأسماء في الأمم السابقة فقال: «إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، والصالحين قبلهم» رواه أحمد والترمذي وغيره عن المغيرة بن شعبة.

وقد ورد عن سعيد بن المسيب قوله: أحب الأسماء إليه أسماء الأنبياء[٢]. وقد اختار الصحابي الجليل الزبير بن العوام رضي الله عنه أسماء شهداء الصحابة لأبنائه رجاء أن يسلكوا سلوكهم، فينالوا درجة الشهادة في سبيل الله.

ويجوز تكنية الطفل بأبي فلان، ففي الصحيحين من حديث أنس قال: كان النبي أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، وكان النبي ﷺ إذا جاء يقول له يا أبا عمير! ما فعل النغير، نُغَيْرٌ كان يلعب به».

وأبو هريرة كان يكنى بذلك ولم يكن له ولد إذ ذاك والتكنية إكرام للمكنى قال الشاعر:

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقب

وقد يصغر اسم الطفل ملاعبة ومداعبة له، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان ﷺ يلاعب زينب بنت أم سلمة، ويقول: «يا زوينب، يا زوينب» مراراً رواه الضياء بسند صحيح[٣].

ومما سبق ذكره، يمكننا أن نقسم أسماء المسلمين إلى ما يلي:

(١) الشيخ محمد المالكي ـ المنهل اللطيف في أصول الحديث ـ ص١٩٤.

(٢) ابن قيم الجوزية ـ تحفة المودود في أحكام المولود ـ مكتبة دار البيان دمشق ١٩٧١ ص١١٢.

(٣) انظر صحيح الجامع للشيخ محمد بن نوح نجاتي ط٣ رقم / ٥٠٢٥/.

١ـ أسماء أضيفت إلى أسماء الله تعالى كعبد الله وعبد الرحمن.

٢ـ أسماء أخذت من أسماء الأنبياء عليهم السلام كإبراهيم وإسماعيل ويوسف.

٣ـ أسماء أخذت من أسماء النبي وصفاته: محمد ـ أحمد ـ محمود ـ مصطفى.

٤ـ أسماء أخذت من الصحابة والتابعين والشهداء والصالحين.

٥ـ أسماء الإناث أخذت من الصحابيات والصالحات لهذه الأمة الإسلامية فما أكثر المسميات بخديجة وعائشة وفاطمة وزينب ورقية وغيرهن.

٦ـ وأسماء أخذت من المعاني الخيرية للإسلام مثل ـ جهاد ـ عمار ـ حارث.

وحرص النبي عليه الصلاة والسلام على أسماء هذه الأمة الإسلامية، وعلمنا أن نختار الحسن منها، وننبذ القبيح ونغيره وقد وضح عليه الصلاة والسلام بالحديث التالي الأسماء المحببة والأسماء القبيحة، فقال عليه الصلاة والسلام «تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله، عبدالله، وعبدالرحمن، وأصدقها حارث وهمَّام، وأقبحها: حرب ومُرَّةٌ»[١] ولم يكتف الرسول الكريم ببيان الحسن والقبيح في الأسماء بل غير القبيح منها، فقد غير اسم عاصية إلى جميلة، فقد أخرج مسلم وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ غير اسم عاصية وسماها جميلة[٢]. ولقد بين رسول الله ﷺ الأسماء المكروهة والمحرمة، فقد اتفق على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد العزى، وعبد هبل، وعبد الكعبة . . . وما أشبه. عن هانئ بن زيد قال: وفد على النبي ﷺ قوم فسمعهم يسمون عبد الحجر فقال له: «ما اسمك" فقال عبد الحجر فقال له رسول الله ﷺ إنما أنت عبدالله»[٣].

(١) رواه أحمد في المسند ٤/ ٤٤٥ في الأدب باب تغيير الأسماء.

(٢) رواه مسلم رقم /٢١٣٩/ في باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة.

(٣) انظر تحفة المودود بأحكام المولود ص١١٣.

ونهى رسول الله ﷺ أن نتسمى بأسماء الشياطين، وأسماء الفراعنة في أحاديث متناثرة في كتب الحديث، كل ذلك يؤكد للمسلمين أن يحافظوا على الأسماء المحبوبة إلى الله ورسوله والتي تحيي فيهم أسماء أنبيائهم ورجال أمتهم وتذكرهم بالمعاني الفاضلة التي تتصف بها الأمة الإسلامية، وتجعل الأجيال ترتبط بتاريخ هذه الأمة ارتباطاً وثيقاً في الأسماء والأفعال، ونبتعد عن الأسماء الأجنبية التي لاتمت إلينا بصلة ونحذر منها، فإن ضياع أسمائنا وتبديلها بأسماء مستوردة فقدٌ لجزء من هويتنا، بل دليل على تهاوننا في الحفاظ عليها. ونلفت النظر ـ بالإضافة إلى ما ذكرنا ـ أن يكون الأسم قليل الحروف، خفيفاً على الألسن سهلاً في اللفظ ليكون سريع التمكن من السمع، ويكون حسن المعنى جارياً في أبناء الأمة.

ولو تتبعنا صيغ أسماء الأعلام التي ذكرت في القرآن والحديث، وما تعارف عليه المسلمون، لوجدنا بعضها جاء مضافاً إليه كـ(عبدالله) أو من أفعل التفضيل مثل (أحمد) أو من اسم مفعول مثل (محمود) أو أسم فاعل مثل (صالح) أو من فعل مضارع كـ(يزيد) وقد يأتي على وزن فُعل كـ(عمر). مما سبق نجد أن أسم الطفل عندما يولد يأخذ أهمية بالغة من الله تعالى ومن الأنبياء ومن الوالدين وغيرهم لأن الإنسان سيعرف به في الدنيا والآخرة لذلك كله طولبنا أن نحسِّن الأسماء، لأن من تكريم الإنسان أن يحمل اسماً حسناً مباركاً يدل على نسبه وانتمائه وهويته.

* * *

المراجع

١ـ د. محمد حسن الحمصي ـ القرآن بيان وتفسير مع فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ، دار الرشيد ـ دمشق ـ بيروت.

٢ـ محمد علي الصابوني ـ صفوة التفاسير ـ دار القلم العربي ـ حلب ـ سوريا.

٣ـ المعجم العربي الأساسي ـ المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.

٤ـ ابن قيم الجوزية ـ تحفة المودود بأحكام المولود ـ دار البيان ـ دمشق ـ سوريا ١٩٧١م.

٥ـ محمد نور بن عبدالحفيظ سويد ـ منهج التربية النبوية للطفل ـ دار ابن كثير ـ دمشق سوريا ١٩٩٨م.

٦ـ مراجع أخرى ذكرت في الهوامش.

* * *